

في نور محمد فاطمة الزهراء

إنَّما كان مسجد الرسول بالمدينة، وكما ينبغي أن تكون المساجد، متَّسعا لكلِّ صنوف النشاط البشري الذي ينفع الناس. فهو مسجد «جامع» يضمُّ مختلف أنواع السلوك التي توافق طبيعة الإسلام، إنَّه متعبَّد ومتهجَّد، ومكانٌ لبثِّ الدعوة، ومدرسةٌ للتفقيه، وملتقىٌ للوافدين لاعتناق الدين، ومأوىٌ وملاذٌ لمن ليس لهم من المؤمنين مأوىٌ ولا ملاذٌ، ومجمعٌ للمسلمين حين الاستنفار لدفع الأعداء، وموقعٌ لعلاج الجرحى والمصابين، ودارٌ للندوة، ومقرٌّ للحكم. وعندما وصل محمد إلى «يثرب» بعد هجرته، واستخفَّت الفرحة قدمها للقاءه، وتخاطف كثيرون منهم مقود ناقتهم، كلٌّ فريق يحاول أن ينيخها بمنازلهم، ليكون لهم شرف حلوله بين ظهرائهم... ردَّهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك، وقال لهم: «خلِّوا سبيل ناقتي» وقال: «دعوها فإنَّها مأمورة» [841]. ثم ألقى بخِطام [842] الناقة على غاربها، وتركها تمضي إلى حيث أراد لها أن تمضي، وأن تبرك على حيثما أراد لها البروك. وبركت الدابَّة على مريد سهل وسهيل ابني عمرو، فابتاعه النبي، وخطَّ عليه مسجده على هيئة فناء فسيح، رفعت جدرانها الأربعة من آجر وتراب، وسُقِّف جانبٌ منه بسعف النخيل، وتُرك جانبٌ آخر مكشوفاً... فكان بعضه مأوىً ومرقداً لفقراء المسلمين ممَّن لا منازل لهم ولا ديار... ثم بنى الرسول بيته حافَّةً بالمسجد كقطعة منه، وعلى نفس طرازه، كأنَّما عني أن تكون داره مدد ذلك النشاط البشري المتعدِّد الشعب والجوانب، وأن يتلاءم البناءان، طرازاً وهيئةً، حتَّى ل يبدو كلُّ منهما وإنَّه لمتَّمم للآخر. كانت الدار لصيقة بالمسجد، ومطلَّة على فناءه... وكانت بضع دُجرات بسيطة بغير زخرف، بعضها من جريد يمسكه الطين، بعضها من حجارة مرصوفة... بابها بغير حلقة يطرقها الطارق، اكتفاءً بقرعه بالأظافر عند الاستئذان للدخول [843].